السَّنة الحادية والسَّبعون وخمسة مئة

فيها عَزَلَ الخليفةُ صَنْدل الخادم المقتفوي عن الأستاذ دارية، وضيَّق على ولده الأمير أبي العبَّاس أحمد النَّاصر لأمرٍ بلغه عنهما، وولى ابنَ الصَّاحب أستاذ الدار مكان صندل، وولى ابنَ النَّاقد[١] حِجْبَةَ الباب، ثم عَزَلَه، وولى مكانه أبا سَعْد بن المعوَّج[٢]، وسببه أنَّ ابنَ النَّاقد كان يميل إلى التَّشيّع، وعِمامته طويلة، فلقَّبه أهل باب الأَزَج قنبر، وهو ذكر العصافير، فكان إذا رَكِبَ صاحوا: قنبر قنبر، وقَرُبَ العيد، فأمره الخليفة أن يركب في صَدْر الموكب، فجمع العوام قنابير كثيرة، وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة: إنْ وقع هذا بقي الموكب هُتْكَة، فعزله، وولى ابن المعوَّج.

وقال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: وفي هذه السنة عُقِدَ عَقدُ ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة، وحضَرَ قاضي القُضاة، والعدول والخدم والأكابر، على أبي الفَتْح ابن رشيد الطَّبري.

[قال][٣]: وزوجتُ ابني أبا القاسم بابنةِ الوزير يحيى بن هُبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهتدي[٤].

[قلت][٥]: وهذه رابعة هي والدتي، تزوَّجها ابن رشيد الطَّبري، وهو أوَّل أزواجها، ولم يطل عمره معها، ثم زوَّجها جَدِّي بوالدي بعد موت ابنِ رشيد، وقد سمعتْ الحديثَ على ابن البَطِّي، وثابت بن بُنْدار، ومُعْظم مشايخ جدِّي، وزُفَّت إلى ابن رشيد في المحرَّم سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة][٣] في دار الجهة بنفشا جهة الخليفة، وجهَّزَتْها بمالٍ عظيم.

[قلت: ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة، وأنَّ أحداً من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته][٣].

---

(١) ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٦٠٤هـ).

(٢) هو محمد بن عبدالله بن الحسين، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٧٣هـ).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٧.

(٥) في (ح): قال المصنف رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وأما أخبار الشَّام فإنَّ الحلبيين نقضوا الصُّلْح الذي كان بينهم وبين صلاح الدِّين؛ وسببه أنَّ سيف الدين غازي لامهم على ذلك، وأَرْسَلَ رسولاً إلى صلاح الدين، ودَفَعَ له كتابين أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهداً للمواصلة، ويكشف ما عنده، وكتاباً إلى الحلبيين يلومهم فيه على الصُّلْح، ويخبرهم أنه واصلٌ بعساكر الشَّرْق، وكان صلاح الدِّين بدمشق، فبدأ به الرسول، وقد ربط الكتابين في منديله لتغفله، فلمَّا دخل على صلاح الدين غَلِطَ، فناوله كتابَ الحلبيين؛ لسعادةِ صلاح الدين، فتأمَّله، وعلم أنَّ الرسول قد غَلِطَ، فلم يقل له كلمة، وفهم الرَّسول، فقام، وخرج من عنده، ولم يمكنه الاستدراك.

وكتب صلاحُ الدِّين إلى أخيه العادل بمصر بتجهيز العساكر المِصْرية إلى الشَّام بسرعة، وجَمَعَ سيفُ الدِّين العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زَنْكي بسِنْجار عاصياً عليه مائلاً إلى صلاح الدِّين، فصالحه، وجاءَ سيفُ الدِّين، فقطع الفرات، وبَعَثَ إلى أُمراء حلب وكُمُشْتِكِين الخادم، وتقرَّر بينهم أمر، وسار إلى حلب، والتقاه الملك الصَّالح بن نور الدِّين، فاعْتَنَقَه سيفُ الدين وبكى، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة، وصَعِدَ إلى القلعة جريدةً، وكان أُمراء حلب كل يوم يركبون إلى خِدْمته، ثم رحل إلى تلِّ السُّلْطان ومعه عساكر الشَّرْق، ودياربكر والحلبيون، فكانوا عشرين ألفاً ما بين فارسٍ وراجل[1]، وبلغ صلاح الدِّين وهو بدمشق، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف، وما رأى التخلُّف عن لقائهم، وكان في انتظار العسكر المِصْري، فسار، فنزل على حماة، وتركَ أثقاله بها، وساق إلى جباب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم، ويأمرونه بالرُّجوع إلى مصر. قال رسولهم: فوافيته، وهو في خيمةٍ صغيرة على بساط لطيف، وتحته سَجَّادة، وبين يديه مُصْحف، وهو مستقبل القِبْلة، وإلى جانبه زرديته، وسيفه بين يديه وقوسه، وتركشه[2] معلَّق في عمود الخيمة، فلما رأيتُه؛ وَقَعَ في خاطري أَنَّه المنصور؛ لأني فارقتُ سيفَ الدين

(١) ربما أخذ سبط ابن الجوزي عدد الجيش مما كتبه العماد في «البرق الشامي»، وقد نقد ابن الأثير ما حكاه العماد، وحقق عدد الجيش فقال: إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمس مئة. ثم قال: وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه (يعني صلاح الدين) بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يتبع، وانظر «الكامل»: ١١/ ٤٢٩.

(٢) تركَش: الكنانة، جعبة السهام، «المعجم الذهبي»: ١٨٦.

والأمراء وهم على طنافسِ الحرير، والخمور [تروّق والجنوك] [١] تعمل، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المنكرات المحرَّمات، فأدَّيْتُ إليه الرِّسالة، وجاء وقت الظهر، فضجَّ العسكر بصوت الأذان، وفي كلِّ خيمةٍ إمام، فقال لي: الحق بأصحابك، وقل لهم يستعدوا [للقتال، ويرتقبوا] [٢] لقائي، فإنِّي عند طلوع الشمس نازلٌ عليهم، ويحكم الله بيننا، وهو خيرُ الحاكمين قال: ففارقته وأنا على بصيرةٍ من نَصْره وخِذْلانهم، وسقتُ عامة الليل، فوافيتهم وقت الفجر سكارى، فطلبتُ سيفَ الدِّين. فقيل: هو نائم. فوالله ما انبسطتِ الشمسُ إلا وأعلامُ صلاحِ الدين قد أقبلت، والكوسات تخفق، وأصحابنا نيام، فقاموا مُسْرعين، وكان يوم الخميس عاشر شوّال، وعلى ميمنةِ صلاح الدين شهابُ الدين محمود خاله، وعلى مَيْسرته صاحب بُصْرى، وهو في القلب، و[كان] [٢] في ميمنة المواصلة مظفرُ الدِّين [ابن زين الدين] [٢] صاحب إربل، وفي الميسرة الحلبيون، وسيف الدِّين في القلب، وكان صلاح الدين قد وقف على تلٍّ عالٍ، وحَمَل مظفر الدين، فطحن ميسرة صلاح الدِّين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها، فنزل صلاح الدين [من التل] [٢]، ورأى أن يباشر الأمر بنفسه [وإلا اختلَّ الأمر] [٢]، فساق عليهم، واتفق وصولُ العساكر المِصْرية في تلك السَّاعة مع تقي الدِّين عمر، وعز الدين فَرُّخْشاه، وناصر الدين محمد بن شيركوه، فهال المواصلة ذلك، فولُّوا منهزمين [٣].

وساق صلاحُ الدِّين إلى خيامهم، فأَسَر أمراءهم، ونجا سيفُ الدين بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سُرادق سيف الدين مفروشاً بالرَّياحين، والمغاني جلوسٌ في انتظاره، والخمور تروق، وأقفاص الطُّيور فيها أنواع من القَمَاري والبلابل والهَزَارات، ومطابخه بقدورها، فأرسل صلاحُ الدِّين بما كان في السُّرادق من المغنيين والخمور والطير إليه، وقال للرسول: قل له اشتغالك بهذا أليق بك من مباشرة الحروب، فلا تَعُدْ إلى مثلها. ثم فرَّق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش)، والجنوك: جمع، مفردها جنك: وهو العود، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ٢/ ٣١٣، والألفاظ الفارسية المعربة: ٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (م) و(ش): فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الأطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا، وولوا منهزمين.

أصحابه، وأعطى عِزَّ الدين فَرُّخشاه سُرادق سيف الدين، وكان [عز الدين][١] قد أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً.

وسار صلاح الدين، فنزل على مَنْبج، وبها قطبُ الدِّين يَنَال بن حَسَّان، فقاتله، واتَّفق وقوع ثُلْمةٍ من السُّور، فطلب الأمان على نفسه فأَمَّنه، فخرج سليباً، وأخذَ صلاح الدين من الحِصْن ثلاث مئة ألف دينار، وعَرَضَ عليه المقام عنده، فامتنع لشنآنٍ[٢] قديمٍ كان بينهما، وسار إلى المَوْصل، فأقطعه سيفُ الدِّين الرَّقَّة.

وسار السُّلطان، ففتح حِصْن بُزاعة، ونازل حصن أَعْزاز، فأقام عليه ثمانيةً وعشرين يوماً[٣] وفتحه في ذي الحِجَّة، فقال العماد: [من الرجز]

جـاز الـعُـلا بـبَـأْسِـهِ وجُـوده وهـو أحـقُّ الـخَـلْـق بـاحـتـيـازهـا
وحـلـبٌ تـنـفـي كُـمُـشْـتِـكِـيـنـهـا كـمـا انـتـفـتْ بـغـدادُ مـن قَـيْـمازِهـا[٤]
فـالـيـوم ذَلَّـتْ حـلـبٌ لأَنَّـهـا كـانـت تـنـالُ الـعِـزَّ مـن أَعْـزازهـا

وفيها قفزتِ الإسماعيليةُ على صلاح الدِّين، وهو على أعزاز؛ جاءه ثلاثة في [زِيّ][١] الأجناد، فضربه واحدٌ بسكِّين في رأسه، وكان في كُمَّته[٥] زَرَدٌ مدفون، فلم يجرحه، وخَدَشَتْ السِّكِّين خَدَّه، وقُتل داود بن منكلان، وقُتل الثَّلاثة.

فرحل صلاح الدين، ونزل على حلب، فبعث الملكُ الصَّالح أُخته خاتون بنت نور الدين في اللَّيل، فدخلتْ عليه، فأقام قائماً، وقبَّلَ الأرض، وبكى على نور الدين، فسألتْ أن يردَّ عليهم أعزاز [فقال: سمعاً وطاعة][١]، فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتَّفق مع الملك الصّالح أن من حماة وما فتحه إلى مِصْر له، وأنْ يطلق الصَّالح أولادَ الدَّاية[٦].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الشنآن: البغض «اللسان» (شنأ).
(٣) عند العماد: حاصره ثمانية وثلاثين يوماً، انظر «الروضتين»: ٢/ ٤٠٧ .
(٤) انظر حوادث (٥٧١هـ) من هذا الكتاب.
(٥) الكمة: القلنسوة المدورة. «القاموس المحيط» (كمم).
(٦) نزول ابنة نور الدين إلى صلاح الدين، وإتمام الصلح مع الملك الصالح، ورحيل صلاح الدين من بعد إلى بلاد الإسماعيلية كان في أوائل سنة (٥٧٢هـ)، انظر «الروضتين»: ٢/ ٤٢٢ ، وما بعدها.

obeikandi.com

وسار صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية، فنصب المجانيق على مصياث، ونهبتِ العساكرُ بلادهم، وقتلوا وسبوا، وكان مقدَّم الإسماعيلية سنان بن محمد، فأرسل [إلى][١] شهاب الدِّين محمود صاحب حماة، خالِ صلاح الدِّين، يقول: نحن جيرانُك، وقد فعل ابنُ أخيك فينا ما فعل، والمصلحةُ رحيله عنَّا، فاشْفَعْ إليه. فما أمكنه مخالفتهم، فأخبر صلاحَ الدين، وقال: أخاف على نفسي. فرحل إلى دمشق.

وفيها قَدِمَ شمسُ الدولة أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق سَلْخ ذي الحجة.

وفيها فوَّض سيفُ الدين غازي أمر المَوْصل إلى مجاهد الدين قَيْماز الخادم، وكان قبل هذا بإِرْبل نائب زين الدين[٢].

وفيها توفي

عليُّ بنُ الحسن[٣]

ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبو القاسم الدِّمَشْقي الحافظ، ويعرف بابنِ عساكر، [وليس هذا الاسم في نسبه من قبل الأب، ولعله من قبل الأم.

وذكره جدِّي، وأثنى عليه في «المنتظم»[٤]، فقال: علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر،][١] سمع الحديث الكثير، وكانت له به معرفة، وصنَّف تاريخاً لدمشق، وكان شديد التعصب لأبي الحسن الأشعري، حتى صنف كتاباً سماه «كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري»[٥].

[وتوفي بدمشق في هذه السنة. هذا صورة ما ذكره جدي رحمه الله.

قلت][١]: ولد الحافظ أول المحرَّم سنة تسعٍ وتسعين وأربع مئة، وأُمه أُم القاسم بنت القاضي أبي الفَضْل يحيى بن علي القُرَشي، وكانَ أحدَ أئمة الحديث المشهورين، والعلماء

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) هو زين الدين يوسف بن علي صاحب إربل، وقد توفي سنة (٥٨٦هـ). انظر «الروضتين»: ٤/ ١٦٨ .
(٣) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ١/ ٢٧٤-٢٨٠ ، و«المنتظم» ١٠/ ٢٦١، «معجم الأدباء»: ١٣/ ٧٣-٨٧ ، «الكامل» لابن الأثير: ١٢/ ٣٥٧ ، «كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٢٠ ، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩-٣١١ ، و«تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٣٢٨-١٣٣٤ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٥٤-٥٧١ ، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ١٠٥-١١١ ، وقد استقصيت ثمة مصادر ترجمته.
(٤) ١٠/ ٢٦١ .
(٥) هو «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري»، وقد عني بنشره حسام الدين القدسي سنة (١٣٤٧هـ).

obeikandi.com

المذكورين، سافر إلى الشَّرْق سنة عشرين وخمس مئة، وسمع ببغداد وخُرَاسان وأَصْبهان ونَيْسابور وهَرَاة، ثم حجَّ، وسمع بمكة والمدينة والشَّام، واشتغل بالفِقْه، وصنَّف كُتُباً كثيرة منها: [«تاريخ دمشق» بثمان مئة جزء في ثمانين مجلدة، وكتاب][1] «الإشراف في معرفة الأطراف»، و«فضل أصحاب الحديث» و«الأربعين» و«الجهاد» و«فضائل مكة والمدينة» و«البيت المقدس» و«فضل قُريش والأنصار» و«فضائل أهل البيت» و«فضائل الصحابة» و«مسند أبي حنيفة» و«كتاب الزَّلازل»، وغير ذلك.

وقال ابنُ السَّمعاني: أنشدني لنفسه: [من البسيط]

وصاحبٍ خانَ ما استَوْدَعْتُه وأتى ... ما لا يليقُ بأربابِ الدِّياناتِ
وأظهر السِّرَّ مختاراً بلا سببٍ ... وذاك والله من أوفى الجناياتِ
أما أتاه عن المختار في خبرٍ ... أنَّ المجالس تُغْشى بالأماناتِ[2]

وقال ابنُ السَّمْعاني: طلب الحافظُ مني كتاب «دلائل النُّبوة» للبيهقي، وأخرتُ إنفاذه، فكتَبَ من دمشق إلى خُراسان يعاتبني، فقال: [من مجزوء الكامل]

ما خِلْتُ حاجاتي إليـ ... ـك وإنْ نأتْ داري مُضَاعَهْ[3]
وأراك قد أهْمَلْتَها ... وأَضَعْتَها كلَّ الإضاعَهْ
أنسيتَ ثَدْيَ مودَّةٍ ... بيني وبينك في الرَّضاعه
ولقد عَهِدْتُك في الوفا ... ءِ أخا تميمٍ لا قُضاعَهْ
وأراكَ نُكْراً لا تخا ... فُ على الصَّداقة والبضاعَهْ[4]

[وذكره العماد في «الخريدة»، وقال: سمعت عليه من التاريخ الذي صنفه من أنواع ما ألفه، وأنشدني لنفسه في ربى دمشق][5] [من المتقارب]

أيا نفسُ وَيْحَك جاءَ المَشِيبُ ... فماذا التَّصابي وماذا الغَزَلْ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٥ .
(٣) في (ح): «ما كنت أعرف أن حاجاتي إليك»: وبه لا يستقيم الوزن مع سائر الأبيات، والمثبت من «الخريدة».
(٤) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٥-٢٧٦ .
(٥) في (ح): «وقال العماد: أنشدني لنفسه بقرية المزة هذه الأبيات» والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

تــولَّــى شــبــابــي كــأن لــم يــكــنْ وجــاء مــشــيــبــي كــأنْ لــم يَــزَلْ
فــيــالــيــتَ شــعْــري مــمــن أكــون ومــا قــدَّر الــلــه لــي فــي الأَزَلْ[١]

ذكر وفاته:

توفي ليلة الاثنين حادي عشر رجب، وقد بلغ [من العمر][٢] اثنتين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وميدان الحصى، صلَّى عليه القُطْب النَّيسابوري، وحَضَرَ صلاحُ الدِّين الصَّلاة عليه، [سمع ببغداد أبا القاسم هبة الله بن الحصين وغيره، وحج إلى مكة في سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، فسمع بها أبا أحمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل المصري، وغيره، ثم سافر إلى المشرق، فسمع بنيسابور وغيرها][٢] وكان ولده أبو محمد القاسم يقول: سمع أبي من ألف شيخ وثلاث مئة شيخ وبضع وثمانين امرأة [[٣]وسمع منه الحافظ أبو العلاء الهمذاني وهو أكبر منه، وذكر ابنه القاسم أنه صنف ستين كتاباً، وكانوا يفضلونه على الخطيب، وله بنى نور الدين دار الحديث بدمشق، وعاش ابنه القاسم إلى سنة ست مئة، وتوفي بها، وسنذكره].

وقال الحافظ: أنشدني أبو الفوارس المظفر بن عمر الآمِدي: [من الطويل]

وَدِدْتُ بــأنَّ الــدَّهْــرَ يــنــظُــرُ نــظــرةً بــعــيــنٍ جلا عــنــهــا الــغــيــايــةَ نــورُهــا
إلى هــذه الــدُّنــيــا الــتــي قــد تــخــبَّــطَــتْ وجُــنَّــتْ فساس النَّاسَ فيها حميرُها
فــيــنــكِــرَ مــالا يَــرْتــضــيــه مــحــصِّــلٌ ويــأنــفَ أن تُــعْــزى إلــيــه أمــورُهــا
فقد أبغضتْ فيها الجسومَ نفوسُها مَلالاً وضاقتْ بالقلوبِ صدورُها[٤]

السنة الثانية والسَّبعون وخمس مئة

[حكى[٥] جدِّي ـ رحمه الله ـ أن في هذه السنة تعرَّض رجلٌ لامرأة، فامتنعت عليه إلا أن تدع من ينكحه، فغلب حبُّه لها، فكان يدع من ينكحه ويأتيها]، فقال لها في

---

(١) «الخريدة»: ١/ ٢٧٥.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح): وصنف ستين كتاباً، وله بنى نور الدين بدمشق دار الحديث، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) الأبيات في «الخريدة»، قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٥٩.
(٥) في (ح): فيها تعرض رجل لامرأة، فامتنعت عليه إلا بالنكاح، فكان يأتيها، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).